القَولُ المستَقْصَى

في أنَّ نِعم اللّه لا تُعدُّ ولا تُحصى

تأليف

أبي عبد الرحمن خليل بن عبد الله بن أحمد الحمادي

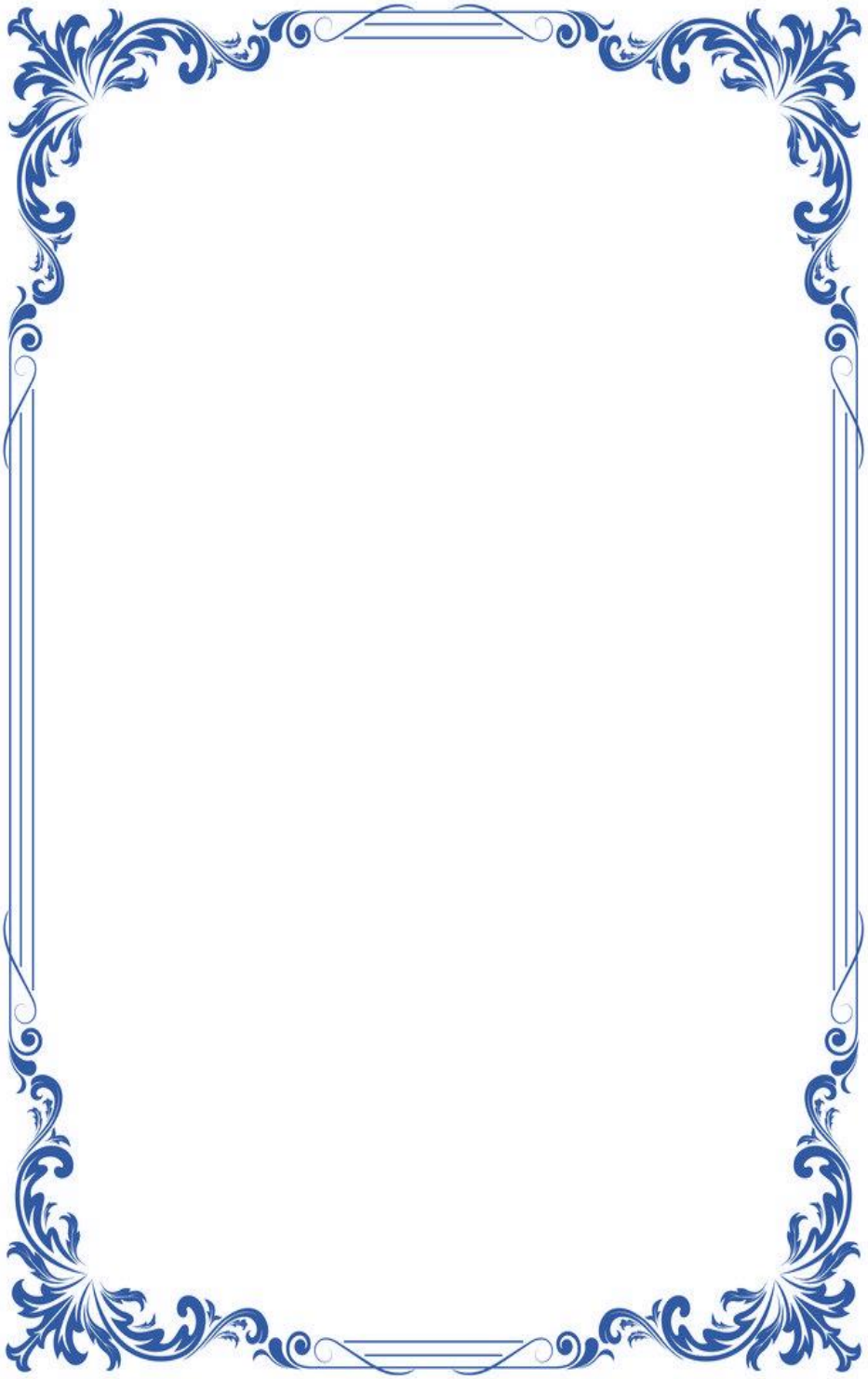

مقدمة

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمه الظاهرة والباطنة، التي لا نطيق لها شكرًا، ولا نبلغ لها عدًّا ولا إحصاء، نحمده تعالى كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونشكره على آلائه التي لا تفنى، ظاهرها وباطنها، سرها وعلانيّتها، ما علمنا منها وما لم نعلم، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد، الذي قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»، وعلى آله الطيبين، وصحابته الأكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد جرى على ألسنة العلماء والدعاة وطلبة العلم، قولهم في مقام الامتنان والاعتراف بجميل الإحسان: "نِعَمٌ لا تُعد ولا تُحصى"، وهو تعبيرٌ سائغ في اللغة، مستقيم في المعنى، موافق لما دل عليه صريح القرآن وكلام العلماء.

غير أن بعض المتعجلين قد استنكروا هذه العبارة، وزعموا أنها مخالفة لظاهر القرآن الكريم، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [سورة النحل: ١٨، إبراهيم: ٣٤]،

فقالوا: إنَّ الله قد أثبت إمكان العدِّ بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾، ونفى فقط الإحصاء بقوله: ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾.

فلا يصح – بزعمهم – أن يُقال: "لا تُعد"، بل التعبير الصائب – عندهم – أن يقال: "نعم الله تعدُّ ولا تُحصى" فقط!

وهذا الاستدلال موضع نظر، بل هو خطأ ظاهر، وفهم قاصر، إذ لا يصح الاستدلال بحرف شرطٍ ورد في سياق تعجيزي، يُراد به إظهار عجز المخلوق، لا تحقيق الشرط وجوابه.

كما أن هذا القول – أعني إنكار عبارة "لا تُعد ولا تُحصى" – قول مُحدَث، لا يُعرف له أصل عن أحدٍ من السلف أو الأئمة، ولا يَعرفه أهل اللغة أو المفسرون.

ولإيضاح وجه الصواب في هذه المسألة، ورفع ما وقع فيها من إشكال أو توهم، جاء هذا البحث الموسوم بـ: "**القول المستقصى في أنَّ نعم الله لا تُعد ولا تُحصى**"، جمعًا لأطراف المسألة، وتتبعًا لأقوال أهل العلم فيها، وبيانًا للسياق القرآني واللغوي الذي وردت فيه، مع مناقشة الاعتراضات التي أُثيرت حولها.

وقد جعلت البحث في أربعة مباحث رئيسة، على النحو الآتي:

المبحث الأول: بيان معنى العدِّ والإحصاء في لغة العرب.

المبحث الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

المبحث الثالث: شيوع استعمال عبارة (لا تُعد ولا تُحصى) في كلام العلماء:

– أولًا: في سياق الحديث عن نعم الله تعالى.

– ثانيًا: في غير باب النِّعَم، في الأمور الكثيرة المتنوعة.

المبحث الرابع: الفرق بين قولهم: (نِعَمٌ تُعد ولا تُحصى) وقولهم: (نِعَمٌ لا تُعد ولا تُحصى).

وخاتمة يُجمع فيها القول، وتُبيَّن خلاصة المسألة بدليلها.

واللهَ أسأل التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لمن قرأه، ومزيلاً للبس على من التبس عليه الأمر.

والحمد لله ربِّ العالمين.

المبحث الأول:

بيان معنى العدِّ والإحصاء في لغة العرب

لما كانت الآية الكريمة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ هي أصل النزاع في هذه المسألة، وكان الحكم على دلالتها متوقفًا على فهم معاني ألفاظها بدقة، تعيَّن أن يُحرر القول في معنى العدِّ ومعنى الإحصاء، وبيان ما بينهما من التوافق والاختلاف، فإنَّ كثيرًا من الإشكال المتداول في هذه المسألة راجعٌ إلى الخلط بين المفهومين، أو توهم التباين التام بينهما.

وقد نصَّ أهل اللغة والتفسير والبيان على أنَّ بين اللفظين تلازمًا واشتراكًا من وجه، وافتراقًا من وجه آخر، وأنَّ كلاً منهما يدل على التناول الكميِّ للأشياء، إلا أن العدَّ يتعلق بإبراز العدد وبيان المقدار، في حين أن الإحصاء يدل على الاستيعاب والإحاطة، عدًّا ومعرفةً وضبطًا، وقد يجيء في كلام العرب مرادفًا لما يُعجز عن إحصائه من شدة الكثرة أو التفصيل.

وفي هذا المبحث بيان لمعاني الكلمتين كما قرره أهل اللغة، ووجوه الاشتراك والافتراق بينهما، وأثر ذلك في فهم دلالة الآية، وفي صحة استعمال عبارة: "لا تُعد ولا تُحصى".

أولًا معنى العد:

العدُّ: هو تحديد عدد الشيء بتتبع أفراده واحدًا واحدًا، من قولك: عدَّ الدراهم، إذا أحصاها واحدًا بعد واحد.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٤/ ٢٩):

العين والدال أصلٌ صحيح واحد لا يخلو من العَدِّ الذي هو الإحصاء... فالعَدُّ: إحصاء الشيء. تقول: عددت الشيءَ أعُدُّه عَدّاً فأنا عادٌّ، والشيء معدود. والعَديد: الكثرة. والعَدَد: مقدار ما يُعَدُّ. ا. هـ

قال ابن منظور في لسان العرب (٣/ ٢٨١):

العَدُّ إِحْصاءُ الشيءِ عَدَّه يَعُدُّه عَدّاً وتَعْداداً وعَدَّةً وعَدَّدَه.

والعَدَدُ في قوله تعالى: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ له معنيان: يكون أَحصى كل شيء معدوداً فيكون نصبه على الحال يقال عددت الدراهم عدّاً وما عُدَّ فهو مَعْدود وعَدَد كما يقال نفضت ثمر الشجر نَفْضاً والمَنْفُوضُ نَفَضٌ.

ويكون معنى قوله: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ أَي إِحصاء فأَقام عدداً مقام الإِحصاء لأَنه بمعناه. ا. هـ

وقال الجوهري في الصحاح في اللغة (١/ ٤٥٠):

عَدَدْتُ الشيءَ، إذا أحصيته، والاسم العَدَدُ والعَديدُ. يقال: هم عَديدُ الحصَى والثَرى، أي في الكثرة. ا. هـ

قال الفراهيدي في كتاب العين (١/ ٧٩):

عَدَدَتْ الشَّيْءَ عَدًّا: حَسَبْتُهُ وأَحْصَيْتُهُ، قال عزَّ وجَلَّ: ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ يَعْني أنَّ الأنفاس تُحْصَى إِحْصَاءً ولها عَددٌ مَعْلُوم. ا. هـ

وبه قال الخليل في العين.

وقال المناوي في التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٤١):

الإحصاء التحصيل بالعدد من لفظ الحصا لأنهم كانوا يعتمدونه في العدد كاعتمادنا فيه على الأصابع.

وقال أبو البقاء في الكليات (٣/ ٦٥):

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أحاط به عددا لم يغيب منه شيئا وفي تاج المصادر الإحصاء أخص من العد لأنه العد على سبيل الاستقصاء وظاهر كلام الصحاح يدل على الترادف.

وفي تاج العروس للزبيدي (٩/ ٩)

العَدُّ: الإِحصاءُ عَدَّ الشْيءَ يَعُدُّه عَدّاً وتَعدَاداً وعِدَّةً. وعَدَّدَه والاسمُ: العَدَدُ والعَدِيدُ قالَ الله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ قال ابنُ الأَثِيرِ: له مَعْنَيانِ: يكون أَحْصَى كُلَّ شْيءٍ مَعْدُوداً فيكون نصبه على الحالِ يقال: عَدَدْتُ الدَّرَاهِمَ عَدّاً وما عُدَّ فهو مَعْدُودٌ وَعَدَدٌ كما يقال: نَفَضْتُ ثمر الشجر نَفْضاً والمَنْفُوض نَفَضٌ. ويكونُ مَعْنَى قولهِ ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أَي إِحصاءً فأَقَامَ عَدَداً مُقام الإِحصاءِ لأَنَّهُ بِمَعْنَاه.

وبنحو هذا قال ابن عباد في المحيط، وابن دريد في جمهرة اللغة وغيرهم.

ثانيًا: معنى الإحصاء:

الإحصاء: هو ضَبْطُ العَدَدِ، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الحَصا اسْمًا لِلْعَدَدِ، وهو مَنقُولٌ مِنَ الحَصى، وهو صِغارُ الحِجارَةِ؛ لِأَنَّهم كانُوا يَعُدُونَ الأعْدادَ الكَثِيرَةَ بِالحَصى تَجَنُّبًا لِلْغَلَطِ.

ومما يُستفاد من كلام أهل اللغة في معنى العدِّ، أن ثمة اتفاقًا بينهم على أنَّ العدَّ والإحصاء يتداخلان من جهة المعنى، فكلاهما يتعلَّق بإظهار العدد، وضبط الكمية، لكنَّهم يُفرقون بينهما بفرق دقيقٍ، يظهر في الاستعمال ويؤثر في الدلالة.

ولأجل بيان هذا الفرق الجوهري، لا بد من معرفة معنى الإحصاء بشيء من التتبع والبيان لكلام أهل العلم واللغة.

قال ابن منظور في اللسان(١٤/ ١٨٤): الإِحْصَاءُ: العَدُّ والحِفْظ. و أَحْصَى الشيءَ: أَحاطَ به. وأَحْصَيْت الشيءَ: عَدَدته. قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أَي لن تُطِيقوا عَدَّه وضَبْطَه. انتهى

وقال الأزهري في تهذيب اللغة (٥/ ١٠٧):

قول الله جلّ وعزّ: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ أَي أَحَاط علمُه بِاسْتِيفَاء عَدَدِ كل شَيْء. انتهى

وقال الجوهري في الصحاح (١/ ١٣٣):

أَحْصَيْتُ الشيءَ: عَدَدْتُهُ.

وقال ابن الملقن في التوضيح (٣٣/ ٢٣٠):

الإحصاء في اللغة يطلق بمعنى: الإحاطة بعلم عدد الشيء وقدره، ومنه: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾، هذا قول الخليل.

وقال الخطابي في غريب الحديث (١/ ٧٣٠)

معنى الإحصاء في اللغة على ثلاثة أوجه:

أحدها: الإحصاء بمعنى العدِّ، كقوله تعالى: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

الثاني: بمعنى الإطاقة، كقوله سبحانه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، أي: لن تطيقوه.

الثالث: بمعنى العقل والمعرفة.

ويروى عن ابن عباس أنه قال: "أحصيت كل القرآن إلا حرفين"، يريد: أدركت علمه وعقلت معناه.

ثم قال الخطابي:

فمن حمل الحديث (في إحصاء الأسماء الحسنى) على معنى الإحصاء الذي هو العد، قال إن معناه: من عدّ هذه الأسماء ذاكرًا الله عز وجل ومثنيًا عليه بها، واستدل في ذلك بأن التسعة والتسعين لما كانت عددا من الأعداد ثم عطف بالإحصاء عليها علم أن المراد به إحصاء العدد دون غيره. ا. هـ

وعليه، فإن الإحصاء عدٌّ وزيادة، فهو أخص من العد، وأبلغ منه، إذ يتضمَّن الضبط، والحفظ، والإحاطة، والمعرفة التفصيلية بخصائص المعدود وصفاته بعد عده إجمالًا.

ولهذا ورد في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [سورة مريم: ٩٤]، ففرَّق بين العدِّ والإحصاء، فـ" عَدَّهُمْ " أي: عدد أفرادهم، و" أَحْصَاهُمْ " أي: علم صفات كل واحد منهم، وأحواله، وخصائصه على وجه الإحاطة والشمول.

وبناءً على ما تقدم من كلام أهل اللغة، يمكن تلخيص الفرق بين العدِّ والإحصاء باختصار على النحو الآتي:

العدُّ: هو إظهار عدد الأشياء بضم بعضها إلى بعض، كأن تقول: واحد، اثنان، ثلاثة... دون اشتراط حفظٍ أو إحاطة.

الإحصاء: هو العدُّ مع زيادة، إذ يشمل العدَّ والإحاطة التامة، والحفظ، والاستيفاء، والعلم التفصيلي بالمعدود من حيث صفاته وقدره ومقداره.

فيكون الإحصاء أخصُّ من العد، وأبلغ منه، وهو يشير إلى الضبط الشامل بعدد الشيء وخصائصه، ولهذا يُستعمل في القرآن للدلالة على العلم المحيط، كما في قوله: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[سورة الجن: ٢٨]، وقوله: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [سورة مريم: ٩٤]، فجمع بينهما، وقدم الإحصاء لأنه أشمل وأقوى.

فالإحصاء= عدٌّ + إحاطة + حفظ + استيفاء.

بينما العدُّ مجرد تعداد رقمي.

ولذا فإن نفي الإحصاء في قوله تعالى: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ يتضمّن – بطريق الأولى – نفي العدِّ، كما فسَّره أئمة التفسير واللغة.

ويدل على ذلك ما جاء في الحديث من أحصاها دخل الجنة.

قال ابن منظور في لسان العرب (١٤/ ١٨٣):

قال الأَزهري: وأَما قول النبي ﷺ: « **إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١)، فمعناه عندي -والله أَعلم-: من أَحصاها علْماً وإِيماناً بها ويقيناً بأَنها صفات الله عزَّ وجل ولم يُرِد الإِحْصاءَ الذي هو العَدُّ.

وَقَالَ ابْنُ الأَثير فِي قَوْلِهِ: «**مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الْجَنَّةَ**»: قِيلَ مَنْ أَحْصَاها مَنْ حَفِظَها عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ، وَقِيلَ: مَنِ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وأَحاديث رَسُولِهِ ﷺ، لأَن النَّبِيَّ ﷺ، لَمْ يُعِدَّهَا لَهُمْ...

وَفِي الْحَدِيثِ: «**اسْتَقِيمُوا ولَنْ تُحْصُوا واعْلَموا أَنَّ خيرَ أَعمالِكُم الصَّلاةُ**»(٢)، أَي اسْتَقِيموا فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا تَميلوا وَلَنْ تُطِيقوا الاسْتقامة مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ أَي لَنْ تُطِيقوا عَدَّه وضَبْطَه. ا. هـ

وقال المناوي في " التيسير بشرح الجامع الصغير (١/ ٤٥)" عند قوله ﷺ: «**أَحْصُوا هِلالَ شَعْبَانَ لِرَمضَانَ**»(٣): عدُّوا واضبطوا، قَالَ الطِّيِّبِيُّ: والإحصاء أبلغ من العدِّ فِي الضَّبْط لما فِيهِ من إفراط الْجهد فِي العدِّ وَلِهَذَا كنى عَنهُ بالطاقة فِي قَوْله: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا**». انتهى

فعلى هذا يكون معنى الآية: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾:

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) (صحيح)رواه أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان.

(٣) (حسن) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة.

أي: إن بدأتم في عدِّها - على سبيل الافتراض لا الواقع، إذ لا يمكن عدُّها فعلاً - فلن تستطيعوا إحصاءها أبدًا، لأن العد أسهل، والإحصاء أشمل وأدق.

فالآية تدل على العجز عن إتمام العدِّ مع الإحاطة، لا مجرد الشروع فيه.

وبناءً على هذا، يكون التعبير الشائع على ألسنة الناس: "لا تُعدّ ولا تُحصى" تعبيرًا سليمًا، موافقًا للمعنى الذي دلت عليه الآية، لأنه يدل على عجزٍ تامٍّ عن الإحاطة بالنعم، عدًّا وتفصيلاً، لا مجرد البدء فيه فقط.

والله أعلم.

المبحث الثاني

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾

تعدُّ هذه الآية الكريمة أصلَ هذا البحث ومحلَّ النزاع، وقد أولاها أهل التفسير اهتمامًا كبيرًا، ففسَّروا ألفاظها، وبيَّنوا ما فيها من البلاغة ودقة التعبير، ودلائل العجز البشري أمام كثرة نِعَم الله تعالى وعظمتها.

وقد اتفقت كلماتهم على أن المراد بنفي الإحصاء في الآية هو بيان العجز التام عن العدِّ والتتبع والاستقصاء، سواء في العلم بتلك النعم، أو في إحصائها عددًا، أو في أداء حق شكرها، وإن لم يُصرّح في الآية بنفي "العدّ"، فإنَّ السياق والعبارات المفسِّرة دالة على شموله، كما أن الإحصاء متضمِّن في أصله للعدِّ وزيادة، كما تقدم بيانه من المعنى اللغوي لكليهما.

ولذا كان من اللازم الوقوف على معنى هذه الآية، كما بيَّنه العلماء الربانيون في تفاسيرهم، للنظر في وجوه الدلالة التي ذكروها، والوقوف على ما يتصل بمقصود هذا البحث.

فقد وردت هذه الآية الكريمة في موضعين من كتاب الله تعالى:

الموضع الأول في سورة إبراهيم، قال سبحانه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤].

والموضع الثاني في سورة النحل، قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [سورة النحل:١٨].

وقد جاء السياق في الموضعين بذكر بعضٍ من نعم الله على عباده، والتنبيه على كثرتها وعجزهم عن إحصائها، مما يوقظ في القلوب الشعور بالامتنان، ويستدعي تعظيم المنعم جل جلاله.

فقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾:

قال ابن جرير في تفسيره (١٧/ ١٦):

يقول تعالى ذكره: وإن تعدّوا أيها الناس نعمة الله التي أنعمها عليكم لا تطيقوا إحصاء عددها. ا. هـ

وهذا نصٌّ في أن المراد العجز عن العدّ، لا مجرد الإحصاء بمعناه الأخص.

وقال العلامة ابن كثير (٤/ ٥١١):

يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها. ا. هـ

فصرَّح بالعجز عن التعداد، مما يبيِّن أن المراد أوسع من مجرد عدم الإحاطة.

وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٦٧):

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ أي نعم الله. ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ ولا تطيقوا عدها، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها. ا. هـ

قال البغوي (٤/ ٣٥٤):

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ أَيْ: نِعَمَ اللَّهِ، ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ أَيْ: لَا تُطِيقُوا عَدَّهَا وَلَا الْقِيَامَ بِشُكْرِهَا. ا.هـ

وهذا تصريح بأن النفي يشمل العد والحصر معًا.

قال الألوسي في روح المعاني (٧/ ٢١٣):

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ أي ما أنعم به عليكم كما هو الظاهر.

وقال الواحدي: إن نِعْمَتَ هنا اسم أقيم مقام المصدر يقال: أنعم إنعاما ونعمة كما يقال أنفقت إنفاقا ونفقة فالنعمة بمعنى الإنعام ولذا لم تجمع، والمعول عليه ما أشرنا إليه من أنها اسم جنس بمعنى المنعم به، والمراد بها الجمع كأنه قيل: (وإن تعدوا نعم الله لا تُحْصُوها) وقد نص بعضهم على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة.

والمراد بـ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ لا تطيقوا حصرها ولو إجمالا فإنها غير متناهية، وأصل الإحصاء العد بالحصى فإنَّ العرب كانوا يعتمدونه في العد كاعتمادنا فيه على الأصابع، ثم استعمل لمطلق العد. ا.هـ

وتأمل جيدا قوله: "ثم استعمل لمطلق العد"، فإنَّه يدل على أن الإحصاء أبلغ وأشمل من العدّ، وأنه يتضمّنه، ويزيد عليه بالضبط والإحاطة.

فحين يُنفى الإحصاء، يكون ذلك نفيًا للعدِّ بطريق الأولى.

وهذا يعزّز المعنى المراد في الآية: أن نعم الله تعالى لا تُعدُّ ولا تُحصى، لا ابتداءً ولا انتهاء، لا على وجه الإجمال ولا التفصيل، بل هي أعظم من أن تحصى أو تُحيط بها عقول العباد.

وقال السمعاني في تفسيره (٣/ ١١٩):

قَوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَة: مَعْنَاهُ: لَا تُطِيقُوا عدهَا. ا. هـ

وهذا التفسير يبيِّن أن النفي في الآية لا يقتصر على الإحصاء بمعناه الدقيق أو التفصيلي، بل هو نفي للعدِّ من أصله، وهو نصٌّ ظاهر في إرجاع النفي إلى العدِّ ذاته.

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز (٣/ ٣٨٥):

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ أي إن حاولتم إحصاءها وحصرها عددا حتى لا يشذ شيء منها لم تقدروا على ذلك، ولا اتفق لكم إحصاؤها إذ هي في كل دقيقة من أحوالكم. ا. هـ

ومن خلال هذه النقولات المتضافرة عن أهل التفسير – وغيرها كثير – يتبيَّن بوضوح أن نفي الإحصاء في الآية، وإن جاء بصيغة منفردة، يتضمَّن نفي العدِّ من باب أولى، إذ الإحصاء أخصّ وأشدُّ دقةً من مجرد العدّ، فإذا نُفي الأخصّ دلّ على نفي الأعمّ بطريق أولى.

وبناءً على هذا، فلا وجه للاعتراض على إطلاق عبارة: "لا تُعد ولا تُحصى" بدعوى أن الآية نفت الإحصاء وأثبتت العد، فإن هذا الفهم مردود بشهادات أئمة التفسير، الذين هم أعمدة الفهم القرآني، حيث أجمعوا على أن العجز المذكور في الآية يشمل أصل العدّ نفسه، وأن المراد بذلك هو إظهار عجز الإنسان عن الإحاطة بنِعَم الله: علمًا، وشكرًا، وعدًّا، وإحصاءً.

فمن كان عاجزًا عن الإحصاء، كان عن العد أعجز، ومن لم يدرك الكليات، فهو عن إدراك الجزئيات أقصر، ولذلك كان التعبير بـ"لا تُعد ولا تُحصى" أصدق دلالة، وأبلغ وصفًا، وأوفق لمقاصد الآية الكريمة.

- ويُقرِّب هذا المعنى المثالُ الواقعي الآتي:

فلو أعطاك أحدهم مبلغًا كبيرًا من المال وقال لك: "عُد هذا المال"، فبدأت تعدَّه حتى بلغت نصفه، ثم توقفت، فهل يُقال إنك قد عددت المال؟

لا، بل سيقال: لم تعدَّه؛ لأنك لم تُكمل العدّ.

فالمقصود ليس مجرد بداية العد، وإنما تمام العد وإحكام الإحصاء، فإذا عجزت عن الإتمام، فقد عجزت عن العدّ والإحصاء.

وهكذا نِعَمُ الله: قد يُدرك العبدُ طرفًا منها، ويبدأ التأمل فيها، لكنه لا يستطيع إتمام العد ولا بلوغ الإحصاء، فهي فوق قدرته، وعدُّها متعذر، وشكرها أعجز.

- مثال واقعي آخر:

تخيَّل أن جهةً رسميةً طلبت منك إحصاء عدد الحجاج في أحد المخيمات، وكان العدد الفعلي ألف حاج، فبدأت العدَّ ثم توقفت عند الرقم (٥٠٠)، ثم قلت لهم: "لقد عددت الحجاج. ". سيقال لك: "لا، لم تعدَّهم، لأنك لم تُتمَّ العد. "

فالمقصود بالعدِّ هو إحصاء جميع الأفراد دون نقص، وإلا لا يُعد إحصاءً، ولا عدًّا.

وهذا يبيِّن أن قول الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾:

أي: لو شرعتم في العد، فلن تبلغوا تمام العدِّ والإحصاء لكثرتها وعجزكم، وليس المقصود مجرد البدء فيه فقط.

- **فإن قيل:**

إن الآية الكريمة: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾، تفيد أنه لو بدأ العبد بعدِّ النعمة فإنه لا يتمكن من إحصائها، فالمقصود – كما يقول بعضهم – هو مجرد الشروع في العدِّ لا نفي إمكان العدِّ من أصله، وعليه فلا يصح إطلاق قول: "نِعَمٌ لا تُعدُّ ولا تُحصى"، لأنه يفيد استحالة العد من بدايته، وهذا مخالف لمفهوم الآية.

فالجواب:

هذا الإشكال في ظاهره متوجَّه، لكنه عند التحقيق لا يصادم ما قرَّرناه، بل يُبيِّن وجهًا من وجوه الإعجاز في التعبير القرآني.

ففهم الآية على أن المراد: "إن شرعتم في العد فلن تحصوها"، فهم صحيح في نفسه، بل تدل عليه سياقات الآية، إذ قد ذكر الله تعالى قبلها جملة من النعم، ثم عقَّب بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

فهذا يدل على مشروعية بداية العدِّ للنعم، ومحاولة التأمل فيها، لكن العجز حاصل عن بلوغ غاياتها، وتعدادها كلها.

غير أن هذا لا يناقض ما اصطلح عليه العلماء من قولهم: "نِعَمٌ لا تُعدّ ولا تُحصى"، فإن هذه العبارة لا يُراد بها نفي إمكان البدء في العدِّ، بل يُراد بها نفي إمكان الإحاطة التامة بجميع أفراد النعم.

وفي هذا السياق يتَّضح الفرق بين:

قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، فإنه يُفيد أن العجز عن الإحصاء حاصل عند شروع الإنسان في العدّ، أي أنه لو حاول حصر النعمة واحدة واحدة، لم يستطع إتمام ذلك، فهي أكبر من أن يُحيط بها علمًا أو عددًا.

وبين قول الناس: "نِعَمٌ لا تُعدّ ولا تُحصى"، فهو تقرير لحقيقة شرعية وعقلية، مؤدّاها أن هذه النِّعم قد بلغت من الكثرة والتداخل والتنوع والتجدد مبلغًا يعجز العقل والحسُّ والبيان عن إدراكها وإحاطتها، فضلاً عن حصرها أو شكرها.

فما يقوله الناس من عبارة: "لا تُعد ولا تُحصى" لا يعارض مفهوم الآية، بل هو في حقيقته تقريرٌ لمضمونها وتأكيد على معناها؛ إذ نفي الإحصاء في قوله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ يتضمن – من باب أولى – نفي العدّ نفسه، لأن

الإحصاء أعمّ وأشمل من مجرد العدّ، وهو يتضمّن التتبع والاستيفاء والتفصيل، وكلّ ذلك مما يعجز عنه الإنسان عند محاولة الإحاطة بنعم الله، فكيف إذا قيل: إنها لا تُعد ولا تُحصى أصلاً؟

وقد يُقال – توضيحًا للمقصود: إنَّ قول القائل: "هذه الأموال لا تُعدّ" لا يُراد به نفي القدرة على الشروع في العدِّ، وإنما المراد أنه لو شَرَعَ في العدِّ، لم يَبلُغ نهايته، لعِظَم العدد أو لتداخله وتعقيده أو لتجدد أفراده، فكأن العبارة نفيٌ لتمام العدّ، لا لابتدائه.

وكذلك يُفهم قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، فإنَّ نفي الإحصاء لا يعني أن العبد لا يقدر أن يبدأ في تأمل النعم أو تعداد بعضها، بل المعنى: أن النعم من الكثرة والتنوع والتجدد، بحيث لا يَبلُغ العبدُ حدَّ استقصائها ولا يُحيط بها علمًا، ولا يُوفيها شكرًا.

فتأمَّل هذا التفصيل، فإنه يُحكم موضع النزاع، ويزيل الإشكال، ويرُّد الشبهة من أصلها، والله أعلم.

فصلٌ

في فائدة نفيسة

من الفوائد الدقيقة في التعبير القرآني، أنه تعالى لم يقل: "وإن تعدوا نعمة الله لا تقدروا على عدِّها"، مع أن هذا ظاهر في نفي القدرة، وإنما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، والفرق بين التعبيرين دقيق وبليغ؛ إذ نفي الإحصاء أبلغ من نفي العدِّ، لأن الإحصاء كما تقدَّم أخصُّ من العدِّ، ويستلزم العدَّ مع زيادة الضبط والإحاطة والتتبع.

ففي قوله تعالى: ﴿لَا تُحۡصُوهَآ﴾ نفيٌ للقدرة على الإحاطة والتفصيل والحصر، لا لمجرد التعداد، وهو أبلغ في بيان العجز.

ويمكن تقريب المعنى بمثالٍ محسوس:

كنعمة الخبز مثلاً؛ فإن الإنسان قد يقدر على عدِّ أرغفة الخبز التي أمامه، فيقول: هذه خمسة أرغفة، لكنه لا يقدر على إحصاء هذه النعمة من حيث: كم مرة أكل خبزًا؟ ومن أين جاءه؟ ومن الذي زرع القمح؟ ومن الذي طحنه؟ ومن الذي عجنه؟ ومن الذي خبزه؟ وما حال المعدة لو فُقد؟ وما أثره في بدنه؟ وما لو استُبدل عنه غيره؟ وهل في كل بلد يتيسَّر؟ وهل كل صنف منه له نفس الفوائد؟ ثم ما وراء ذلك من التقدير الرباني في إنبات الزرع، وإنزال المطر، وتهيئة الوسائل... إلى آخره.

فتأمل كم من الجهود بُذلت حتى وصل هذا الخبز؟

كم من النعم اجتمعت؟

من المطر، والشمس، والبذور، والأرض، والزارع، والطاحن، والعجان، والخباز، والحافظ له من الفساد...

وكم نعمة في كل جزء من الخبز؟

في لونه، وطعمه، وسلامته من الأمراض، وكونه مُشبِعًا، ومناسبًا للجسم...

فإذا أردت أن تُحصي نعمة الخبز، لزمك أن تُحصي: نعم الخلق، ونعم الإعداد، ونعم الوصول، ونعم الاستفادة، ونعم الهضم، ونعم التيسير... وهذا مما لا يبلغه عدٌّ، ولا يدركه إحصاء، ولا يقدر عليه إلا الله جل جلاله وتقدست أسماؤه.

فكل هذه التفاصيل لا تدخل في مجرد العدِّ، وإنما هي من دقائق الإحصاء، ولهذا اختار القرآن هذا اللفظ الدقيق المعجز فقال: ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾، ولم يقل: "لا تعدوها"، لتأكيد المعنى الأعم، والتعبير الأدق، الذي يدل على عجز الإنسان عن الإحاطة بالنِّعَم عدًّا وفهمًا وضبطًا.

وكأن المعنى: لا تنظر إلى ظاهر النعمة فقط، فإنَّ كل نعمة – وإن بدت واحدة في ظاهرها – فهي في داخلها تحمل ألوانًا لا تُحصى من النعم المركبة، التي يعجز الإنسان عن حصرها وتفصيلها، مهما أوتي من علم وقدرة.

ولعلَّه – والله أعلم – لأجل هذا المعنى العميق والدقيق، أفرد الله تعالى النعمة في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ في موضعين من القرآن، في سورة إبراهيم وسورة النحل، ولم يأتِ بصيغة الجمع "نِعَم"، وذلك لأن كل نعمة منفردة

في ظاهرها، تحمل في باطنها من الخيرات والدقائق والتفريعات ما يخرج عن الحصر والعدِّ والتقدير.

فكأنَّ التعبير بالإفراد يُشير إلى أن النعمة الواحدة – إذا ما أُمعن فيها النظر وتُدُبِّر حقيقتُها – تتفرع منها نعمٌ لا تُعدّ ولا تُحصى، ولا يُحيط بها وصفٌ ولا عدٌّ.

ولو تأمّل العبد في نعمة واحدة كنعمة البصر، أو السمع، أو الماء، أو الخبز، لرأى فيها من وجوه الإنعام ولطائف النفع، ما يعجز عن حصره وإحصائه، فكيف بسائر النِّعَم؟!

فتأمَّل هذا فإنه من نفيس القول، وباب دقيق من أبواب التدبر، فالحمد لله على ما فتح به من الفهم، وما يسَّره من العلم، وهو خير الرازقين.

المبحث الثالث:

شيوع استعمال عبارة "لا تُعد ولا تُحصى" في كلام العلماء:

أولًا: في سياق الحديث عن نعم الله تعالى.

من تأمل كتب التفسير، وشروح الحديث، والعقيدة، والدعوة، والخطب، والفتاوى، يجد أن عبارة: "نِعَمٌ لا تعد ولا تُحصى" قد جرت على ألسنة العلماء قديمًا وحديثًا في مواضع كثيرة وأبواب متعددة، دون أن ينكرها أو يشكك فيها أحد منهم.

وإليك بعضًا من ذلك دون استقصاء، فإنَّ كلامهم في هذا الباب واسع جدًا لا يُحصى ولا يُعد:

قال العلامة ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٧٠) عند قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١٨]،

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعدُّ ولا تحصى، في إنزاله القَطْر من السماء. ا. هـ

ويقول (٦/ ٢٠١) عند قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة النمل: ٥٩].

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول:: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعَمه على عباده، من النعم التي لا تعد ولا تحصى. ا. هـ

وقال (٦/ ٣٢١): قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى. ا. هـ

وقال (٦/ ٥٧٥): ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟. ا. هـ

قال ابن عبد الهادي في العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام (ص: ٣٨٣):

ورقة أُخْرَى مِمَّا كتبه الشَّيْخ فِي السجْن. وَنحن وَللَّه الْحَمد وَالشُّكْر فِي نعم عَظِيمَة تتزايد كل يَوْم ويجدد الله تَعَالَى من نعمه نعما أُخْرَى...

وَنحن فِي نعم عَظِيمَة لَا تحصى وَلَا تعد وَالْحَمْد لله حمدا كثيرا طيبا مُبَارَكًا فِيهِ. ا. هـ

قال العلامة عبد الرحمن المعلمي:

الحمدُ لله المنعِمِ بالخيرات، المُفيضِ لعظيم البركات. أحمدُه على نِعَمٍ لا تُعَدُّ، وأشكرُه على تفضُّلات لا تُحَدُّ. آثار الشيخ العلامة المعلمي (٢٢/ ٢١٨)

قال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٨٨):

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ أَنْ يَتَذَكَّرُوا نِعَمَهُ الْفَائِضَةَ عَلَيْهِمُ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوها. ا. هـ

قال العلامة السعدي في تيسير اللطيف المنان (١/ ١٩١)

وهذا أمر مشاهد يعرفه كل أحد، فجميع العلوم والعبادات الدينية التي تفعل في تلك البقاع الفاضلة، وما جعل الله لها من التضعيف داخل في هذه المنافع،

وجميع المنافع الدنيوية التي لا تعد ولا تحصى داخلة في ذلك ؛ فصدق الله وعده، وأنجز ما قاله، وكان ذلك آية وبرهانا على توحيده وصدق رسله. ا. هـ

وقال في بهجة قلوب الأبرار (ص: ١٧٢)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، يَدْخُلاَنِ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْلِمُ فيستشهد**». متفق عليه.

هذا الحديث يدل على تنوع كرم الكريم، وأن كرمه وفضله متنوع من وجوه لا تعد ولا تحصى، ولا يدخل في عقول الخلق وخواطرهم. ا. هـ

وقال في (ص: ٢١٥)

وأنواع ألطاف الباري سبحانه وتعالى لا تعدّ ولا تحصى، ولا تخطر بالبال، ولا تدور في الخيال. والله أعلم. ا. هـ

قال العلامة حافظ حكمي في أعلام السنة (ص: ٧٩):

ما دليل علو الفوقية من الكتاب؟

ج: الأدلة الصريحة عليه لا تعد ولا تحصى. ا. هـ

قال العلامة الجامي في شرح القواعد المثلى صـ ٣٣:

هل يمكن أن يقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: نعمتاه، لله نعمتان فقط؟ نِعَمٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصى. انتهى

قال العلامة العباد في شرح سنن أبي داود:

وقال: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤]، فنعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى، والنعم كلها من الله. ا. هـ

وفي مرعاة المفاتيح للتبريزي (٦/ ٢٢٤):

قوله: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» تقديره أأترك عبادة ربي لما غفر لي، فلا أكون شاكرا على نعمة المغفرة وغيرها مما لا تعد ولا تحصى من خير الدارين. ا. هـ

وقال المناوي في الإتحافات السنية (ص: ١٥٥):

فإن الله جل ذكره وعدكم بالخير الكثير، والنعيم التي لا تحصى، ولا تعد إذا أنتم أطعتموه في سركم، وجهركم، وأظهرتم شعائر الدين، ونشرتم سنة الرسول ﷺ في كل قطر، وبلد، وقرية، وبيت، ومحفل، ومجتمع.

وفي الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٤/ ٣٠٨):

وبالجملة: فالمنكرات الشنيعة، والبدع الفظيعة بين أظهركم، لا تحصى ولا تعد ولا تستقصى. ا. هـ

وقال العلامة العثيمين في شرح الرياض (٥/ ٤٦٢):

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف رحمه الله في باب حمد الله وشكره ومن المعلوم لنا جميعا أن كل ما بنا من نعمة فمن الله عز وجل وأنه إذا مسنا الضر فليس لنا ملجأ إلا إلى الله وأن الإنسان إذا أصيب بما يكره أو بما يؤذيه فإن الله تعالى يكفر بذلك عنه ما من أذى أو هم أو غم يصيب المؤمن إلا كفر الله بذلك عنه حتى الشوكة يشاكها الشوكة إذا شكتك فإن الله يكفر بها عنك إذا فنعم الله عظيمة كثيرة لا تعد

ولا تحصى لذلك يجب علينا أن نحمد الله تعالى وأن نشكره على نعمه التي أصبغها علينا.

وقال في شرح العقيدة الواسطية (ص: ٢٨١)

أفبعد هذا يقال كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾؟!.

لا والله! بل يقال: إن يدي الله عز وجل مبسوطتان بالعطاء والنعم التي لا تعد ولا تحصى. ا. هـ

وفي لقاءات الباب المفتوح اللقاء [٥٦]:

لقد أنعم الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين نعماً كثيرة لا تعد ولا تحصى، وإن من واجب المؤمنين أن يقوموا بشكر هذه النعم الجزيلة، لأن النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت. ا. هـ

وفي الشرح الممتع على زاد المستقنع (١/ ٦٥)

اعلمْ أن الله عزَّ وجلَّ قد أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، من الأكل والشَّراب واللباس والمسكن، وغير ذلك من نِعَمِه التي لا تُحصى ولا تُعدُّ. ا. هـ

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (ص: ٥٨٢):

قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: ٥٣]، فمِنْ حَقِّهِ عز وجل على هذا العبد المكلف الذي لا ترمش عينه إلا بنعمة، ولا يأكل إلا بنعمة، ولا يتنفس إلا بنعمة، ولا يتعلم إلا بنعمة، ولا يخطو خطوة إلا بنعمة، ولا ينظر

إلا بنعمة، ولا يسمع إلا بنعمة، ولا يتكلم إلا بنعمة، ولا يفرح إلا بنعمة، إلى آخر نِعم الله - عز وجل - التي لا تُحْصَى ولا تُعَد. ا. هـ

ثانيًا: في غير باب النِّعَم، في الأمور الكثيرة المتنوعة

لقد شاع في كلام العلماء، واستقرَّ في مصطلحاتهم، استعمالُ عبارة: "لا تُعد ولا تُحصى" للدلالة على الكثرة البالغة التي يعجز الإنسان عن استيفائها عدًّا وإحصاءً.

وكما استُعملت هذه العبارة في مقام ذكر نعم الله تعالى، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]،

فقد جرى استعمالهم لها في غير ذلك من الأمور الكثيرة المتنوعة، مما يدل على رسوخها في لسانهم، واطراد توظيفها في كلامهم دون نكير، في سياقات تتعلَّق بالشريعة والعلم والواقع.

فالعبارة لم تقتصر على باب النِّعَم كما قد يُظن، بل وُظِّفت عندهم في الإشارة إلى الكثرة التي يعسر حصرها في أبوابٍ شتَّى، منها:

كثرة الصور الفقهية، وتنوع الأقوال والنقول، ووفرة الأحكام والأدلة، وتكاثر البدع والأهواء، وغزارة المصنَّفات والكتب والردود، وفيض الفوائد العلمية والمعرفية.

وغير ذلك من المجالات والسياقات التي استُعملت فيها هذه العبارة للدلالة على السعة البالغة، والكثرة المتكاثرة، الخارجة عن حدود الإحصاء المعتاد، بحيث يُفهم منها العجز عن الاستيعاب لكثرتها، لا لمجرد ابتدائها.

ومما يدلُّ على رسوخ هذا الاستعمال، وشيوعه في لسان أهل العلم: كثرة المواضع التي جرت فيها هذه العبارة على ألسنتهم في مصنفاتهم، على اختلاف مقاصدهم وتنوع موضوعاتهم، ومن ذلك على سبيل التمثيل:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٦/ ١٤٢):

"الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنَّهُ لَوْ فُرِضَ أَنَّ فِي الْحَدِيثِ عُمُومًا لَفْظِيًّا فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِصُوَرٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى. ا. هـ

وقال في المستدرك على مجموع الفتاوى (٢/ ٢٥٤):

"إلى غير ذلك من أحكامٍ مجمعٍ عليها لا تُعد ولا تُحصى". ا. هـ

وقال ابن القيم – رحمه الله – في جلاء الأفهام (ص: ٢٨٨):

" وَقَالَت طَائِفَة أُخْرَى أَن هَذَا التَّشْبِيه حَاصِل بِالنِّسْبَةِ إِلَى كل صَلاَة من صلوَات الْمُصَلِّين فَكل مصل صلي على النَّبِي ﷺ بِهَذِهِ الصَّلاَة فقد طلب من الله أَن يُصَلِّي على رَسُوله ﷺ صَلاَة مثل الصَّلاَة الْحَاصِلَة لآل إِبْرَاهِيم وَلَا ريب أَنه إِذا حصل لَهُ من كل مصل طلب من الله لَهُ صَلاَة مثل صلاَته على آل إِبْرَاهِيم حصل لَهُ من ذَلِك أَضْعَاف مضاعفة من الصَّلاَة لَا تعد وَلَا تحصى وَلم يُقَارِبه فِيهَا أحد فضلا عَن أَن يُسَاوِيه أَو يفضله ﷺ. ا. هـ

وفي البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٩٣):

والاموال التي لا تحصى ولا تعد. ا. هـ

وقال في (١٢/ ٢٨٦) عند ترجمة الْحَسَنُ بن الحسن:

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ رُئِيَ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ فِي مَدِينَةٍ جَمِيعُ جُدْرَانِهَا كُتُبٌ وَحَوْلَهُ كُتُبٌ لَا تعد ولا تحصى، وَهُوَ مُشْتَغِلٌ بِمُطَالَعَتِهَا، فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَشْغَلَنِي بِمَا كُنْتُ أشتغل به في الدنيا فأعطانى. ا. هـ

قال بدر الدين العيني في عقد الجمان (ص: ٤٢٠):

فنظروا إلى عسكر قد ملأ الأرض، ولم يروا مثلهم في أعمارهم، وأراهم الله في عيونهم في كثرة لا تحصى ولا تعد. ا. هـ

وفي طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١/ ٢٤٠):

وأرسل من جهته تجارا معهم أموال لا تعد ولا تحصى. ا.هـ

وقال العلامة محمد بن عبد الوهاب في مفيد المستفيد صـ ٣٠٩:

ومثل إجماع التابعين ومن بعدهم على قتل الجعد بن درهم وهو مشهور بالعلم والدين، وهلم جرا من وقائع لا تعد ولا تحصى. ا.هـ

وقال أبو بطين في الانتصار لحزب الله الموحدين (ص: ٩٥):

فكيف لو رأى من تقدم ذكرهم هذه الأزمنة. التي ظهر فيها الشرك الأكبر والأصغر، والبدع التي لا تعد ولا تحصى: في الاعتقادات والأقوال والأعمال. ا.هـ

وقال العلامة النجمي في رد الجواب (ص: ١٢):

وكتب الردود على المبتدعة التي ألفوها في كل زمان ومكان، والتي لاتعدّ ولا تحصى من زمن التابعين إلى وقتنا الحاضر شاهدة بذلك. ا. هـ

وقال العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤/ ٣٠):

على هذا جريت في كل تآليفي، ولا سيما أن (الاستثناء) هنا شواهده في الكتاب والسنة لا تعد ولا تحصى. والله ولي التوفيق. ا.هـ

وقال في السلسلة الضعيفة (٣/ ١٢٧):

وقع في مطبوعة " الكامل " (٢/٧٧٦ - تحقيق لجنة من المختصين !): " الزهري " مكان " أبي هريرة " ! وكم في هذه المطبوعة من أخطاء لا تعد ولا تحصى!. اهـ.

خلاصة هذا الفصل

بعد هذا العرض المستفيض لكلام أهل العلم، وغيره كثير؛ يتبيَّن لنا بجلاء أن عبارة: "لا تُعد ولا تُحصى" ليست مجرَّد تعبير دارج، بل هي عبارة أصيلة، راسخة الاستعمال في كلام أهل العلم، قديمًا وحديثًا، جرت في خطابهم على كل ما بلغ من الكثرة مبلغًا يعجز الذهن عن استيعابه أو الإحاطة به، سواء من النِّعَم أو الأوصاف أو الأحكام أو الأعمال.

وإذا كانت هذه العبارة تُستعمل في المخلوقات المحدودة، والأعمال المحصورة، والأقوال المدركة، ممّا هو داخل تحت طور البشر علمًا وإحصاءً لكنها وُصفت بأنها "لا تُعد ولا تُحصى" لعجز الناظرين عنها أو لكثرتها الخارجة عن العادة، فكيف لا يُقال ذلك – وبحقٍّ ويقين – في شأن نعم الله تعالى، وهي أوسع، وأشمل، وأعظم، وأدوم، لا يحصيها عدٌّ، ولا يحيط بها عقل، ولا يستوعبها بشر؟

بل لا يُحصيها إلا الله وحده سبحانه، فهي نعمٌ متنوِّعة، تتوالى في الليل والنهار، وتُغدق على العبد ظاهرًا وباطنًا، دينيةً ودنيوية، ماضيةً وحاضرةً، حسيةً ومعنوية، لا يخلو منها طرفة عين، ولا يطيق المرء عدَّ ما في لحظة واحدة منها، فضلاً عن حصرها في عمره كله.

أفلا يُقال فيها – بحق – إنها نعم لا تُعدّ ولا تُحصى؟!

وعليه، يتبيَّن للباحث المنصف أن عبارة: "لا تُعد ولا تُحصى" ليست من قبيل العبارات المُحدَثة أو الركيكة التي يتوقف فيها، أو يُنكَر إطلاقها، بل هي عبارة

أصيلة راسخة، قد جرت على ألسنة العلماء سلفًا وخلفًا، وشاعت في مصنفاتهم ومجالسهم، في مواضع كثيرة من التفسير والحديث والعقيدة والوعظ والفتاوى والخطب.

ولم يُعرف عن أحد منهم إنكارها أو التشغيب عليها، ممَّا يدلُّ على أنهم يرونها من العبارات الجارية المطابقة لمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

وعليه، فإنَّ من أنكر هذه العبارة أو توقف فيها، فقد جانب الصواب، وخالف سبيل أهل العلم، وغفل عن دلالات النصوص.

فنسأل الله تعالى علماً نافعاً، وفهماً صحيحاً يوافق مراده سبحانه وتعالى، وأن يجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين.

المبحث الرابع:

الفرق بين قولهم: (نِعَمٌ لا تُعد ولا تُحصى).

وقولهم: (نِعَمٌ تُعد ولا تُحصى)

بعد ما تقرر بيانه من صحة استعمال عبارة: "لا تُعد ولا تُحصى"، وبيان رسوخها في خطاب أهل العلم، تبقى مسألة لغوية وبيانية دقيقة، تستحق الوقوف معها والتأمل فيها، وهي: الفرق بين هذين التعبيرين اللذين يجريان كثيرًا على ألسنة المتكلمين في النعم الإلهية.

فهما وإن اشتركا في الدلالة على الكثرة العظيمة، إلا أن بينهما تباينًا في المعنى والدقة البيانية، يظهر عند التحقيق، ويؤثر في قوة التعبير وتمامه.

ولهذا، لا بد من بيان الفروق بين الصيغتين على وجه التفصيل، فنقول:

أولًا: قولهم: (نِعَمٌ تُعد ولا تُحصى)

هذا التعبير يُفهم منه أن النعم كثيرة إلى درجة يصعب معها الإحصاء الكامل، ولكن يمكن للإنسان أن يبدأ العدَّ، ويدرك وجود تلك الكثرة، غير أنه لا يستطيع إتمام الحصر بشكل كامل.

وبمعنى آخر، هو إقرار بوجود عدٍّ جزئي ممكن، مع اعتراف بعجز في إتمام الإحصاء الدقيق.

وبذلك يكون هذا التعبير صحيحًا من جهة اللغة، ولا يحمل خطأً شرعيًا، لكنه أضعف في الدلالة وأقل بلاغةً من التعبير الآخر.

ثانيًا: قولهم: (نِعَمٌ لا تُعدّ ولا تُحصى)

هذا التعبير أكثر دقة وبلاغة، فهو ينفي القدرة على العدّ والإحصاء معًا، بمعنى أن الإنسان يعجز حتى عن البدء في حصر النعم.

فهو تعبير شامل يدل على الكثرة التي تتجاوز قدرة العقل والحواس واللسان على الإحاطة بها، وأقرب إلى المعنى القرآني للنصوص التي تفيد العجز التام عن الإحصاء.

كما أنه تعبير شرعي ولغوي متين، استقرّ في كلام أهل العلم عبر العصور، وهو أليق وأجدر بالاتباع في مقام الحديث عن نعم الله التي لا يُدرِك عددها أحد من الخلق، فضلاً عن حصرها.

الخلاصة:

فالتعبير الأول يعترف بإمكانية بداية العد، لكنه يُقر بعجز الإحصاء الكامل، بينما التعبير الثاني ينفي العد والإحصاء تمامًا، وهو أدق وأبلغ، ويليق بمقام نعم الله تعالى التي تفوق قدرة الإنسان على الإدراك والإحصاء.

وهذا هو الوجه الذي يجب أن يُتبع، خاصةً في التعبير عن عظمة نعم الله التي لا تُحصى ولا تُعدُّ.

خاتمة البحث

وبعد هذا العرض الوافي من جهة اللغة، والاستعمال القرآني، وشواهد أهل العلم، يتبيَّن بوضوح أن عبارة "لا تُعد ولا تُحصى" ليست مجرد تعبير عابر، بل هي تركيب راسخ، له أصلٌ لغويٌّ متين، ودلالةٌ واسعةٌ عميقة، تعكس عظمة نعم الله تعالى التي تعجز العقول عن إدراك عددها أو حصرها.

وقد اتَّضح من البحث الفرق بين التعبيرين المتداولين، وبيان أن التعبير الكامل "لا تُعدُّ ولا تُحصى" هو الأكثر دقة وبلاغة، إذ ينفي القدرة على العدِّ والإحصاء معًا، ويعبِّر عن عجز الإنسان التام أمام كثرة النعم وتنوعها، وهو التعبير الذي يستقي معناه من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، واستقرَّ استعماله في كتب العلماء عبر العصور.

لذا فإن اعتماد هذا التعبير القرآني في وصف نعم الله تعالى هو الأحق بالاتباع، والأبلغ في البيان، لما يتضمنه من تعظيم النعم، وبيان عجز العقول عن حصرها، مما يبعث على مزيد من الشكر والاعتراف بفضل الله سبحانه.

فجدير بالباحثين، والدعاة، والخطباء، والمربين، أن يعتنوا بالألفاظ القرآنية المحكمة، وأن يقدِّموها على ما دونها، فإنها أفصح العبارات، وأبلغها في تأدية المقصود، وأشدها مناسبة في مقام الامتنان بنعم الله العظيمة.

فنسأل الله العظيم أن يرزقنا العلم النافع، والفهم الصحيح، وشكر نِعَمه، وحسن التأدب معها.

وإنَّ مما أحمد الله عليه وأسأله المزيد منه، أن وفَّقني لكتابة هذه الوريقات، وإتمام هذا الجهد القاصر، فهو المتفضل وحده لا شريك له، ولا ربَّ غيره، ولا معبود سواه.

وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لمن اطَّلع عليه.

والحمد لله على فضله وإحسانه، وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وكتبه

الفقير إلى عفو ربِّه

أبو عبد الرحمن خليل بن عبد الله بن أحمد الحمادي

في صبيحة يوم الأحد الموافق السادس والعشرين من شهر ذي الحجة، سنة ستٍ وأربعين

وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية

على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

فهرس الموضوعات

مقدمة..... ٣
المبحث الأول ٦
بيان معنى العدِّ والإحصاء في لغة العرب ٦
أولًا معنى العد ٧
ثانيًا معنى الإحصاء ٩
المبحث الثاني..... ١٤
تفسير قوله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ١٤
الموضع الأول..... ١٤
والموضع الثاني ١٥
وفي هذا السياق يتَّضح الفرق بين ٢٠
وقد يُقال – توضيحًا للمقصود ٢١
فصلٌ..... ٢٢
في فائدة نفيسة..... ٢٢
ويمكن تقريب المعنى بمثالٍ محسوس ٢٢
وكأن المعنى ٢٣
ولعلَّه – والله أعلم – لأجل هذا المعنى العميق والدقيق. ٢٣
المبحث الثالث ٢٥
شيوع استعمال عبارة "لا تُعد ولا تُحصى" في كلام العلماء ٢٥
أولًا في سياق الحديث عن نعم الله تعالى..... ٢٥
ثانيًا في غير باب النِّعَم، في الأمور الكثيرة المتنوعة.... ٣١
خلاصة هذا الفصل ٣٥
وعليه، يتبيَّن للباحث المنصف أن عبارة ٣٥
المبحث الرابع ٣٧
الفرق بين قولهم (نِعَمٌ لا تُعد ولا تُحصى). ٣٧
وقولهم (نِعَمٌ تُعد ولا تُحصى)..... ٣٧

أولًا قولهم (نِعَمٌ تُعد ولا تُحصى)..... ٣٧
ثانيًا قولهم (نِعَمٌ لا تُعدّ ولا تُحصى) ٣٨
الخلاصة ٣٨
خاتمة البحث..... **٣٩**
فهرس الموضوعات..... **٤١**